وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر بسكرة

كلية الحقوق والعلوم السياسية

قسم العلوم السياسية

محاضرات السنة الأولى جذع مشترك علوم سياسية

مقياس تاريخ الحضارة الإسلامية والعربية

المحاضرة الثانية " نظريات تطور الحضارة"

من اعداد د. فؤاد جدو

تمهيد:

تعتبر الحضارات نتاج للتفاعلات الإنسانية في محيطها عبر الزمن مما يسمح بدمج الابعاد الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية العمرانية اين يحدث تلاقح بين حضارة وحضارة وأحيانا تصادم في ما بينها وهذا ما سنتناوله في هذه المحاضرة اهم النظريات التي حاولت تفسر كيف تفاعلت هذه الحضارات وتطورت.

1 اهم النظريات المفسرة لتشكل الحضارات:

أولا: نظرية البيئة : (سلكها، 2017)

تؤكد نظرية البيئة على دور عامل البيئة فى بناء الحضارة وتطورها وترى أن هذا الدور يتفاوت بتفاوت خصائص البيئة وإمكاناتها. فالفرق واضح بين ما إذا كانت البيئة استوائية أو معتدلة أو قطبية لما بين هذه المناطق من فروق واختلافات واضحة فى درجة الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف والأمطار والرياح، إضافة إلى طبيعة شبكة المواصلات البرية والنهرية والبحرية الموجودة في المنطقة. فضلا عن الثروات النباتية والحيوانية والمعدنية التي قد تكون موجودة فيها . وهذه بمجموعها تشير فى حال الاعتدال والانحراف والاتساع والضيق والكثرة والقلة إلى طبيعة الدور الذى يمكن أن تلعبه المنطقة كخاصية حضارية .

ومن هنا نلاحظ أن الأقاليم المعتدلة، لطبيعة خصائصها وإمكاناتها وتفردها بهذه الخصائص والإمكانات دون أقاليم الكرة الأرضية شهدت كثافة سكانية عالية وحفلت بالفعاليات البشرية التى أبدعت حضارات

العالم المعروفة ولذلك نجد أن مفكرى اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد أكدوا على دور عامل البيئة فى بناء الحضارة، فأرجعوا تنوع الثقافات إلى عامل بيئى، وقالوا بأثر الجو والماء والهواء على الإنسان فى خلقه وتفكيره، وميزوا – على سبيل المثال – بين أهل الجبال الذين وصفوهم بالبنية الضخمة والشجاعة والقدرة على الاحتمال ونقاء اللون، وبين أهل الأراضى المنخفضة الحارة الرطبة الذين وصفوهم بالأجسام المترهلة والألوان القاتمة وسرعة الغضب وضعف الاحتمال .

كما يؤكد ابن خلدون على وجود رابطة قوية بين أخلاق الناس والشعوب وبيئتهم الطبيعية . ويذهب إلى أن أخلاق الناس فى المناطق المعتدلة تتسم بالاعتدال، فالبيئة تخلق خلقا وملكة وعادة تنزل فى الإنسان منزلة الطبيعة والجبلة، ومعنى ذلك أن العمران يؤثر فى أبدان البشر وأخلاقهم، كما تؤثر البداوة فيهم . وأهل الجبال فى نظرة أحسن حالا فى أجسامهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين فى العيش، فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد عن الانحراف، وأذهانهم أثقب فى المعارف والإدراكات وهذا أمر تشهد له التجربة فى كل جيل منهم.

وهكذا نلاحظ أن نظرية البيئة تتخذ من الأحوال المناخية والجغرافية المختلفة سببا لتفسير اختلافات البشر القائمة فى سلوكهم.

انتقادات نظرية البيئة:

لا ترتبط الحضارة فى نشأتها بعوامل البيئة وحدها، فليس صحيحا أن البيئة السهلة هي التي تنبثق منها الحضارة . فإذا كان نهر النيل علة الحضارة المصرية القديمة فإنه كان يجب أن تنشأ الحضارات فى بيئات من الطراز النيلى، وإذا كانت حضارة ما بين النهرين تؤكد ذلك فإن عدم قيام حضارة فى وادى الأردن يدحضها، وإذا كانت بيئة الأمازون قد أنتجت الحضارة الأندیانية فإنه فى نفس خط العرض ونفس الظروف البيئية لم تقم حضارة . والحضارة الصينية سليلة النهر الأصفر، ولكن حوض الدانوب مع التشابه فى المناخ والتربة قد أخفق فى إنجاب الحضارة .

خلاصة القول: إن الحضارات لا تقوم نتيجة العوامل الجغرافية فقط بل إن عامل البيئة لا يعد عاملا إيجابيا فى نشوء الحضارة وبعثها إلى الوجود .

ثانيا: نظرية التفوق العرقي: (يعقوبي، 2023، صفحة 610)

فى مستهل القرن التاسع عشر الميلادى وفى غمار المجادلات التي انبعثت عن الثورة الفرنسية ودارت حول التفرقة بين سكان فرنسا الأصليين وبين الفرنجة باعتبارهم برابرة مغتصبين نادى ألكونت دى جوبينو بنظرية الجنس مدعيا انتماء الفريقين إلى جنس واحد هو الجنس النوردى . ونقطة الانطلاق عند جوبينو هى الصراع ضد خطر الديمقراطية، فالمساواة بين البشر فى نظره مفهوم " غير علمي ومناهض للطبيعة " وكل شرور البشر التى تولدت خلال التاريخ نشأت عن هذا المفهوم، مفهوم المساواة.

لقد غير غوينيو التفكير الأوروبي بشأن الجنس او العرق تغيرا جذريا فقد سبقه الى تقسيم الاجناس فريديرك بلومنباخ وجورج كوفريو ويوهان فريديرك اين قسموا الجنس الى ثلاثة مراتب الجنس الأبيض او القوقازي و الشرقي او المغولي ثم الأسود او الحبشي ومن هنا بدا الأوروبيون في تقسيم الاجناس وفق ترتيب هرمي قمته الرجل الأبيض وقاعدته الانسان الزنجي .

يذهب القائلون بنظرية الجنس إلى أن بعض أجناس البشر تصعد، أى تتقدم وتزداد قوة لأن جنسها – أو نفرا من قادته – مهيأ للتقدم، بينما لا تتمتع أجناس أخرى بمواهب كافية للتقدم فيبطئ تقدمها وتميل إلى الركود فى حالة من البداوة أو البقاء على مستوى حضارى معين لا تتخطاه . وأن الجماعات البشرية المهيأة بطبعها للتقدم تتميز غالبية أفرادها بخصائص بدنية أو خلقية، أو بدنية وخلقية معا يتوارثها أفرادها بحيث تصبح هذه الخصائص مميزة لها عن غيرها. ويقول علماء الأجناس إن هذه توجد مركبة فى طبع الجنس وهيئته بالخلقة . وهذه الخصائص تمكنه من صنع الحضارة أو - إذا استعملنا تشبيه التقدم الحضارى بعملية الصعود على سفح الجبل - أن هذه الأجناس قادرة على التحرك والتسلق إلى أعلى مرحلة بعد مرحلة . وخلاصة رأيهم أن هناك أجناسا قادرة على صنع الحضارة وأخرى غير قادرة أو ذات قدرة قليلة فى هذا الميدان . (سلكها، 2017)

والقول بامتياز الأجناس بعضها على بعض شائع عند معظم الأمم فى العصور القديمة والوسطى، ولا يزال قائما عند أهل الغرب – وخاصة غرب أوربا والولايات المتحدة الأمريكية إلى اليوم – فاليونان كانوا يرون أنفسهم أفضل الأمم وأذكاها وأشرفها وبقية الخلق همج، والرومان جعلوا الرومانى فوق غيره بحكم القانون، حتى صاروا إذا أرادوا أن يعرفوا قدر إنسان أو جنس أصدرت لهم الدولة قرارا بمنحه الجنسية الرومانية . أما أهل الصين فكانوا يؤمنون بأنهم أفضل الخلق وأنه لا وجود لأى حضارة أو فضيلة خارج جنسهم . بل كانوا يرون أنهم لا يحتاجون إلى غيرهم فى شئ وليؤكد ملوكهم هذا المعنى أقاموا سور الصين العظيم حتى لا تتدنس أرضهم بأقدام أقوام آخرين . وأما الهنود فشأنهم فى تفضيل طبقة البراهمة على غيرها معروف .

وفى الوقت الذى يتخذ دعاة العنصرية فى الحضارة الغربية البشرة البيضاء دليلا على التفوق واعتبار ذلك علامة تفوق الجنس النوردى على غيره من الأجناس، فإن اليابانيين يستخدمون علامة بدنية مختلفة

للدلالة على التفوق تقوم على اعتبار خلو الجسم من الشعر الذى يميز الإنسان عن القرد خلافا للإنسان المشعر الذى يعد أقرب منزلة من القرد .

انتقادات نظرية الجنس:

من الواضح أن الأفكار الأساسية لهذه النظرية وهى التى تميز بين جنس وآخر باستخدام علامات بدنية مختلفة، هى أفكار غير منطقية ولا يمكن قبولها . فمقولات التاريخ تشهد على زيف هذه النظرية وبطلانها إذ تؤكد ان الحضارة لم تكن وقفًا على جنس دون جنس فلقد ظهرت الحضارة عند كثير من الشعوب التى تنتمى إلى جنسيات مختلفة كالمصريين والهنود والسومريين وغيرهم . كما ظهرت بين الشعوب البيضاء والحمراء مثلما ظهرت عند الشعوب الصفراء . وعلى هذا فليس من حق أى جنس أن يدعى أنه وحده صانع الحضارة على مر التاريخ

ثالثا: نظرية التحدي والاستجابة

تعد نظرية " التحدى والاستجابة " عند توينبى من أهم النظريات التى قدمت إجابة عن هذا السؤال فى ضوء دراستها لعوامل نشوء الحضارة . فلقد ناقش توينبى معظم النظريات التى حاولت تفسير عوامل بناء الحضارة، وقدم لها العديد من الانتقادات، كما هو الحال بالنسبة لنظرية البيئة ونظرية الجنس كما أوضحنا من قبل .

فقد أنكر توينبي وجود حضارة واحدة قديمة -، مثلا القول ان مصر هي اصل جميع الحضارات، فعند توينبي خمس عشرة حضارة تصل بصلة البنوة بحضارات سابقة، وستة مجتمعات فقط قد انبعثت من الحياة البدائية مباشرة . تلك هي: {المصرية – السومرية – الصينية – المايانية – الاندينانية} والاخيرتان نشأتا بأمريكا الجنوبية . - وقال: " أنه لا يمكن ان يُعزى قيام الحضارات الى صفات معينة في جنس من الاجناس، إذ لا يمكن ان يرتبط التفوق الروحي والذهني بلون البشرة فالواقع ان جميع الأجناس قد ساهمت في انبعاث الحضارة . (سلكها، 2017)

ولقد لاحظ توينبى فى دراسته للحضارة البشرية أن هناك بعض المجتمعات لم تستطيع الصعود أمام التحديات الطبيعية والبشرية وذلك لشدة هذه التحديات ويسمى توينبى هذه الحضارات باسم " الحضارات المتعطلة " أى التى أخفقت فى استمرارها، ومن أمثلة هذه الحضارات، حضارة الإسكيمو، ومن أمثلة المجتمعات التى استجابت للتحديات " الأسبرطيون" فلقد واجه الاسبرطيون دواعى التحدى الطبيعى والبشرى .

ومن هنا نلاحظ أن الأحوال الصعبة هى فقط التى تهيئ للبيئات الطبيعة والبشرية فرصة قيام الحضارات . ولذلك يرى توينبى أن هناك خمس دوافع رئيسية تتصل بطبيعة البيئة وهى فى الحقيقة مبدعة الحضارات:-

أولا: دافع الأرض الصعبة:

الدوافع الصعبة التى تواجه الإنسان هى التى تولد لديه قدرة التحدى التى تساهم فى بناء الحضارة فالنهر الأصفر فى الصين – على سبيل المثال – طرح تحديات هائلة للإنسان، فهو لم يكن صالحا فى أى موسم بالإضافة إلى تجمده فى الشتاء، ومع ذلك فقد واجه الإنسان تحديات هذا النهر وحاول أن يغير اتجاهه طوال أربعة آلاف عام إلى أن تمكن من ذلك بالفعل .

ثانيا: دافع الأرض الجديدة:

يرى توينبى أن تاريخ معظم الحضارات يبين أن ذروة ازدهارها كان فى تلك المناطق الجديدة، التى لم تكن من قبل موطنا للأسلاف . فهناك العديد من الهجرات التى حدثت فى التاريخ مثل هجرة التيوكويين والأيوبيين والفلسطينيين والإنجليز ... الخ . وكلها تؤكد حقيقة واحدة وهى انتقال الأنظمة الاجتماعية لهؤلاء المهاجرين إبان حدوث الهجرات، وهكذا تأخذ هذه الهجرات عند توينبى شكل الحافز الحضارى

ثالثا: دافع النكبات والضربات:

يترتب دائما على دافع النكبات ردود أفعال عديدة تلاحظ بصفة خاصة فى تلك التى تنجم عن الكوارث الحربية وهناك ردود أفعال أخرى يتمثل أهمها فى الردود الدينية من خلال أعمال الرسل

رابعا: دافع الضغوط:

والمقصود بالضغوط هنا الضغوط الخارجية، أو تلك التحديات الخارجية التى تأتى من الخارج . وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح فى تاريخ الحضارة المصرية حيث كان الجزء الجنوبى معرض دائما لضغط قبائل النوبة واعتدائها، ولأن هذا الجزء هو الأكثر تعرضا للتهديد فقد تميز منذ ذلك الحين بنفوذ قوى واستطاع من خلاله مجابهة التحدى الخارجى

خامسا: دافع العقوبات:

ويرتبط بالتحديات الداخلية التى تصيب جزءا فقط من الكيان الاجتماعى بفقدان القدرة على مواجهة ذلك التحدى .

انتقادات نظرية التحدي والاستجابة: (قصاص، 2018)

عند النظر الى نظرية التحدي والاستجابة تفترض أن الحضارات تنشأ حين يمارس عليها نوعًا من التحدي يحفزها للاستجابة والمقاومة ومن ثم محاولة فرض رؤيتها واقعًا. يفترض ديورانت أن هذه المقولة تصلح إطارًا لتفسير نشوء الحضارات!

لا تصلح نظرية ديورانت (التحدي والاستجابة) لتفسير نشأة الحضارة الإسلامية، لا في نسختها الأولى، ولا في محاولات الإحياء والتجديد المتكررة عبر العصور. فالإسلام لم يبدأ من تحديات واقعية استجاب لها بما يناسبها. بل برسالة من الله-سبحانه وتعالى وعز وجل- أعطت رؤى خاصة لتفسير سبب الخلق والهدف من الحياة والمآل بعد الممات، والذين استجابوا لله ورسوله تغيروا هم أنفسهم وغيروا الواقع.